سورة الزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ ﴾

مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ : ممحضا له الطاعة والعبادة .

زُلْفَى : تقريبا .

إن القرآن هو تبيين إلهي للحقيقة . وإن أسلوبه الحكيم ومضامينه القوية الناضجة على نحوٍ غير عاديٍ ؛ برهان داخلي على أنه في الواقع من عند الله ؛ إذْ لا أحد من البشر يقدر على أن يأتي بكلامٍ غير عادى من هذا الطراز ! ومعنى إخلاص الدين لله: إخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى إلهاً.. "أي فاعبد الله وحده ، مخلصاً له في عبادتك"[1].

وعاطفة العبادة كامنة في فطرة كل إنسان بطريقة غامضةٍ عجيبةٍ . وهي تعني : أن تتصور إلهاً من الكبرياء والجلال بحيث يتولد في نفسك إحساس بالروعة أو الرهبة تجاهه ، والإله الذي يشعر المرء نحوه بهذا الإحساس ، يعتبره بالتالي أقدس ما يكون ، فيخضع له كل كيانه ، ويبالغ أمامه في التمسك بمراسم التوقير والاحترام . وهو يخافه أشد الخوف ، كما يحبه أشد الحب، وبذكره يلتذ روحه ، وتقر عيناه ، وإنه يعود هو

(١) صفوة التفاسير ، ٣/ ٦٩.

السند الأكبر له في هذه الحياة.

وذلك ما يسمى العبادة. وهذه العبادة هي حق الله الواحد وحده فقط، ولكن الإنسان طالما يشرك غير الله في العبادة والتقديس مع إيمانه بالله،ويمارس ألوان الطقوس والأفعال العبادية لغير الله،وهذا هو ضلال الإنسان الأصلي ، والحقيقة أن العبادة شأنها شأن الألوهية لا تقبل التقسيم أو التجزئة على الإطلاق !

﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ ﴾

سُبْحَانَهُ : تنزيها له عن اتخاذ الولد .

يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ : يلفه على النهار لف اللباس على اللابس .

الإنسان مدفوع بفطرته إلى أن يهفو نحو الله ، ويتوجه إليه بالعبادة والتعظيم . والشيطان يحاول دوماً أن يصرف هذه العاطفة الفطرية عن الله نحو اتجاهٍ آخر ، وتحقيقاً لهذا الغرض فإنه يلقي في أذهان الناس أن جناب الله أرفع وأعلى من أن ترتقوا إليه مباشرةً ، ولذا فينبغي أن تحاولوا الوصول إليه عبر التوسل بالصالحين ، كما يغرس في أذهانهم العقيدة القائلة بأن لله أولاداً تماماً مثلما يكون للبشر ، وأن أيسر طريق لنيل رضا الله هو أن تعملوا على إرضاء أولاده، وإن عبادة المادة في العصر الحديث - التي صرفت عاطفة العبادة المودعة في الفطرة الإنسانية عن الخالق نحو المخلوق - لا تعود أن تكون صورة مشوهة لتلك العقيدة البالية ذاتها .

وكل المعتقدات والطقوس من هذا القبيل تصغير لله عز وجل ، فالله الذي يسيّر

النظام الشمسي الهائل ، والذي يدبر أمر هذا الكون الفسيح ، هو بالطبع أجل وأسمى من أن تروج عنده شفاعة شافعٍ أو يكون له ولد، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !!

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾

وَأَنزَلَ لَكُم : أنشأ وأحدث لأجلكم .

ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ : ظلمة البطن والرحم والمشيمة .

فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ؟: فكيف تصرفون عن عبادته .

ظهر إلى الوجود أول الأمر إنسان واحد ، ثم استخرج منه زوجه على هيئة مطابقة له تماماً، وهكذا تسلسل الجنس البشري عن طريق رجل وامرأة بدائيين ، ثم أنشأ الله أشياء لا تحصى لشتى مصالح الإنسان ومختلف حاجاته، وقد ظلت الإبل والبقر والضأن والمعز (وهي بذكورها وإناثها ثمانية أنواعٍ) ظلت في أولى مراحل الحضارة المورد الرئيسي لمعيشة الإنسان، فلما انتقلت الحضارة إلى طورٍ جديدٍ بدأ الإنسان باستعمال أشياء أخرى لا حصر لها ، صنعها الله منذ بدء الخليقة ليتمكن الإنسان من الانتفاع بها واستخدامها لصالحه ، فكما أن الحيوانات الداجنة مسخرة بطبعها لخدمة الإنسان . فكذلك سخرت له أنواع الغازات والمعادن هي الأخرى ، وإلا لما استطاع الإنسان أن يستعملها بأي وجهٍ من الوجوه ، والثمانية أصنافٍ من الأنعام المشار إليها آنفاً ، إنما ذُكرت على سبيل المثال دون الحصر ..

والظلمات الثلاثة التي ذكرتها الآية هنا فيما يتصل بخلق الإنسان هي : ظلمة جدار البطن ، ثم تليها ظلمة جدار الرحم ، ثم تليها ظلمة الأغشية الخارجية المحيطة بالجنين

من كل جانب .

وهذا النظام معقد وعظيم إلى حدٍ مذهل لا يقدر معه على إيجاده أحد سوى خالق الكون ، إذن ، فمن ذا الذي يستحق سواه أن يُرفع إلى درجة الإله المعبود!!

﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾

وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ :لا تحمل نفس آثمة .

إن الإيمان بالله والشكر له من مقتضيات العقل الإنساني نفسه ؛ لأن ذلك اعتراف بالحقيقة الواقعة ، وليس من شك في أن الاعتراف بالحقيقة الواقعة هو أكبر المطالب العقلية على الإطلاق.

والآخرة هي ظهور للعدل الكامل . ومستحيل أن يبقى هذا الوضع الناقص -الذي نراه يسود عالمنا الراهن - مستمراً في عالم العدل الكامل ذاك ، إذْ يقتضي العدل أن يظهر كل شخصٍ كما هو في واقع الأمر ، وأن ينال بالتالي جزاءً وفاقاً لما يستحقه في الحقيقة ، وهذا مما لا يحدث في العالم الراهن ، وستأتي الآخرة لتصلح هذا العيب ، وتجعل من هذه الدنيا الناقصة دنيا كاملة إلى أقصى حدود الكمال !!

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا

يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾

مُنِيباً إِلَيْهِ : راجعًا إليه ، مستغيثا به.

خَوَّلَهُ نِعْمَةً : أعطاه نعمة عظيمة تفضلاً وإحساناً .

أَنْدَاداً : أمثالاً يعبدونها من دون الله .

هُوَ قَانِتٌ : مطيع خاضع عابد لله تعالى .

آنَاءَ اللَّيْلِ : ساعاته .

ما من امرئ إلا تمر عليه لمحات يجد فيها نفسه عاجزاً كل العجز ، والأشياء التي كانت موضع ثقته واعتماده تخذله هي الأخرى في تلك الساعة الحرجة ، وعندها ينسى المرء كل شيء ويأخذ يتضرع إلى الله في خشوعٍ واستسلامٍ، وهكذا فكل امرئ يدرك في لحظات الشدة أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، ولكن الشدة لا تكاد تزول حتى يعود هو سيرته الأولى ! ويزداد الإنسان كفراً وطغياناً ؛ إذْ هو يأخذ ينسب نجاته إلى أشياء أخرى غير الله ، فبعضهم يعدها نتيجة الأسباب ، وبعضهم الآخر يعتبرها معجزة الآلهة المفترضة ، ولو أن المرء لزم الصمت بعد اقترافه خطأً أو خطيئةً ما، لانحصر ضلاله في شخصه وحده ، ولكنه حين يأخذ في تبرير خطئه ويجعله عين الصواب بتأويله الكاذب ، يتعدى ضلاله إلى غيره ، فيعود ضالاً ومضلاً في الوقت نفسه!

من الناس مَنْ لا يقلقه سوى الهموم المادية وحدها ، وهناك إنسان آخر يهمه ويقلقه ذكر الله . وهذا الإنسان الأخير هو الإنسان الرباني حقاً. إن إقراره بالله لا يكون نتاج الظروف والأحوال ، وإنما يكون اكتشافه الشعوري الواعي ؛ حيث إنه يظفر بالله كموجود أعلى ترتبط كل آماله ومخاوفه بذاته وحدها . وهمومه الداخلية تجعله يبتعد

عن فراشه حتى في ساعات الليل ، وخلوته لا تكون خلوة لاهيةً غافلةً ، وإنما تصبح خلوةً عامرةً بذكر الله سبحانه وتعالى .

العالم هو الذي يمتلئ كيانه النفسي وجلاً واضطراباً بذكر الله ، أما غير العالم فهو الذي لا تهز نفسيته إلا الأحوال المادية ، والذي إنما يستيقظ لبرهةٍ من الزمان على أثر الصدمات المادية ، ثم يعود مرةً أخرى إلى سبات غفلته الطويل العميق!

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾

بِغَيْرِ حِسَابٍ : بلا نهاية لما يعطي أو بتوسعة .

حين يحصل المرء معرفة عميقةً بالله ، يترتب على ذلك بالضرورة أن يمتلئ كيانه كله خوفاً وخشيةً من الله ؛ فإن إدراك عظمة الله وجلاله يجعله خاشعاً ذليلاً بين يديه تعالى ، وتعود حياته العملية تسير وفق الأحكام الإلهية لا تحيد عنها قيد أنملةٍ ، و يصير جاداً مخلصاً في هذا الشأن لدرجة يرضى معها بالتخلي عن كل شيءٍ لأجل الله ولا يرضى بالعكس أبداً !

إن بناء الحياة على أساسٍ من الإيمان امتحان جد عسيرٍ بالنسبة إلى المرء ، وإنما ينجح في هذا الامتحان أولئك وحدهم الذين يعتبرون الإيمان كنزاً ثميناً غالياً بحيث يستعدون من أجله للصبر على الحرمان من أي شيءٍ آخر ، والحياة الإيمانية بمعناها العملي اسم آخر للحياة الصابرة ، و الذين يرضون بدفع ثمن الصبر حتى يكونوا مؤمنين ، هم الذين سيُعطون أوفر نصيب من الإنعامات الإلهية العليا !

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ

دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾

ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ : أطباق منها ، كثيرة متراكمة .

إن دعوة النبي يدور محورها الرئيسي حول أن يصير الناس كلهم عابدين لله الواحد وحده ، ويتركوا عبادة كل شيءٍ سواه ، وإنها لا تكون بالنسبة إلى النبي مسألة قيادية بالمعنى المعروف ، وإنما تكون مسألته الذاتية ، ومن ثم فهو يكون أول القائمين بذلك . وبما أن النبي يكون على يقينٍ من أن مصير الإنسان إلى الفلاح أو الخسران سيتقرر نهائياً في الآخرة ، لذا فهو يكرس حياته في سبيل الآخرة ، ويدعو الآخرين أيضاً إلى تكريس حياتهم في سبيلها، ونوعية عمل النبي هذه تدلنا على نوعية عمل الداعي ، فالداعي إلى الحق إنما هو الشخص الذي يصير الحق عنده بمثابة مسألته الذاتية ، والذي تكون دعوته تعبيراً تلقائياً عن قلقه الداخلي ، وليس ترديداً خارجياً محضاً لبعض الهتافات الفارغة كترديد مكبرات الصوت!

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾

اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ : الأوثان والمعبودات الباطلة .

وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ : رجعوا إلى عبادته وحده .

المطلوب من المرء أن يثبت أنه يملك عقلاً يميز به الصحيح من الغلط ، ويتمكن

من رؤية الحقيقة بتمزيق حجاب الخداع والتمويه الشيطاني. والذين يقيمون الدليل على هذه البصيرة، أولئك هم السعداء الذين سيوفقون إلى إدراك الصدق الإلهي. أما الذين يخفقون في إقامة الدليل على هذه البصيرة، فليس لهم في هذا العالم من مصيرٍ سوى أن يظلوا متعلقين بغير أحسن الجوانب للقول، ويُبعثوا بالتالي عند الله كعبدة الطاغوت!!

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾

حَقَّ عَلَيْهِ : وجب وثبت عليه .

لَهُمْ غُرَفٌ : منازل رفيعة عالية في الجنة .

كل إنسانٍ محاط بعواقب أعماله، حيث تحيط بصاحب الجنة أجواء الجنة العطرة، وتحيط بصاحب النار أجواء النار اللافحة المحرقة. ولو امتلك الناس بصراً نفاذاً إلى الحقائق غير المرئية لرأوا صاحب الجنة يتمتع بنعيمها في هذه الدنيا، ولوجدوا صاحب الجحيم يصلى نارها في هذه الدنيا ذاتها .

والجنة هي الصورة المثالية الكاملة لدنيا الأحلام والأماني التي ينشدها المرء في الحياة الراهنة، ولكنه لا يستطيع الحصول عليها، وثمن هذه الجنة تقوى الله، فالذين يبرهنون على خوف الله في الدنيا، هم وحدهم الذين سينعمون بحياة الجنة الخالية من كل خوفٍ !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ

لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ : أدخله في عيون ومجار .

يَهِيجُ : ييبس في أقصى غايته .

يَجْعَلُهُ حُطَاماً : يصيره فتاتا هشيما متكسرا .

فَوَيْلٌ : هلاك أو حسرة أو شدة عذاب .

إن الوقائع المادية التي نشهدها على الأرض كنظام المطر العجيب المدهش ، وخروج النبات الأخضر به ، وتهيئة أسباب أخرى لإنضاج الزرع بمختلف أنواعه وألوانه ، تنطوي هذه الوقائع على ما لا يُحصى من النصائح المعنوية القيمة ، ولكن هذه النصائح لا يدركها إلا ذوو نفوس طُلعةٍ تحب استكناه الأشياء وسبر أغوار الأمور .

لقد أنشأ الله العالم الخارجي بحيث صار كل شيءٍ فيه علامةً على الحقيقة العليا ، وأودع في الإنسان مواهب وقدرات تمكنه من قراءة تلك العلامات وفهم أسرارها . والذين يحافظون على مواهبهم الفطرية ، ويستخدمونها في تأمل أشياء الكون والوقوف على دقائق صنع الخالق جل وعلا ، فسوف تنفتح في صدورهم أبواب المعرفة ، وأما الذين لا يتمكنون من الاحتفاظ بمواهبهم الفطرية ، فإنهم سيظلون محرومين من الاعتبار والاتعاظ حتى في خضم العبر والعظات ، وإنهم سينظرون ولا يرون ، ويستمعون ولا يسمعون .

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ

مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

أَحْسَنَ الحَدِيثِ : أبلغه وأصدقه وأوفاه (القرآن)

كِتَاباً مُّتَشَابِهاً : في إعجازه وهدايته وخصائصه .

مَّثَانِيَ : مكررا فيها الأحكام والمواعظ والقصص وغيرها .

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ : تضطرب وترتعد من قوارعه .

تَلِينُ جُلُودُهُمْ : تسكن وتطمئن لينة غير منقبضة .

لقد أعطى الله الإنسان أحسن كتاب في صورة القرآن الكريم ، وهو يمتاز بصفتين خاصتين : إحداهما : كونه **متشابهاً** أي إنه كتاب خالٍ من التناقض كل الخلو ، حيث لا يتعارض بعض أجزائه مع بعضها الآخر. وميزة القرآن هذه تدل على أنه كتاب مبني على بيان الحقيقة ، ولو لم تكن بياناته هي الحقيقة بعينها ، لأدى ذلك حتماً إلى حدوث التضارب وانعدام التشابه بين مختلف أجزائه !

وأما الميزة الثانية للقرآن : فهي كونه "مثاني " ، أي إنه كتاب تُنُوولت مضامينه بالإعادة والتكرار مرةً وأخرى بأساليب شتى . وميزة القرآن هذه تدل على كونه كتاب نصيحةٍ ؛ إذْ الناصح يبتغي دوْماً أن يستقر كلامه في ذهن السامع . وهو يلجأ لهذا الغرض إلى تقديم كلامه بطرائق منوعة ، وقد جاءت هذه الحكمة في القرآن الكريم في أرفع مستوياتها وأبهى صورها !

ومن خصوصيات الإنسان أنه إذا سمع نبأ مروعاً ، اقشعر جلده وسرت رعدة في أوصاله ، وتولد في كيانه نوع من اللينة الخاشعة ، وهكذا يكون حال الإنسان الجاد عند تلاوته لآي القرآن الكريم ، فقد بين القرآن حقائق الحياة الخطيرة بأسلوبٍ قويٍ مؤثرٍ للغاية ، ومن هنا فلو أن مخلوقاً كالإنسان قرأه قراءة فهمٍ وتدبرٍ، لطرأت على جسمه

الكيفية الانفعالية التي ينبغي أن تعتريه عند استماعه إلى أي نبأ خطيرٍ بطبيعة الحال!

﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

الخِزْيَ : الذل والهوان.

إن المرء يحاول دوْماً أن يقي وجهه من المؤثرات أو الإصابات ، ولكن عذاب يوم القيامة سيكون محيطاً بالمرء من كل جانبٍ بحيث لن يسعه هناك أن يمنع أي جزءٍ من أجزاء جسده من التعرض له ؛ فإنه سيقف يومئذٍ أمام عذاب لا يُقاوم ، كما لو أنه قد جعل من وجهه جُنّة يتقي بها منه! وأكبر جريمة عند الله هي ألا يعترف المرء بالحق حين يتجلى أمامه، وأمثال هؤلاء لن يفلتوا من بطش الله وعقابه على أية حالٍ !!.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

عِوَجٍ : اختلاف واختلال واضطراب .

شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ : متنازعون شَرِسُو الطباع.

سَلَمًا لِّرَجُلٍ : خالصا له من الشركة والمنازعة .

جاءت مضامين القرآن الكريم في لغةٍ معلومةٍ لدى البشر ، وفي حدود ما يسعه

العلم البشري وتتسع له مداركهم ؛ وذلك لكي لا يصعب فهمها على أحدٍ . وقد بين القرآن هنا، بلسان التمثيل ، أن مبدأ التوحيد أقرب إلى العقل والمنطق وأكثر تطابقاً مع الفطرة بالقياس إلى عقيدة الشرك ، حيث يدلنا الكون الخارجي على أن شئونه إنما يقوم بتصريفها إرادة واحدة فحسب.

ولو كانت هناك إرادات متعددة تتصرف في هذا الكون لاستحال أن يسير نظامه بهذا القدر من الدقة والانسجام ، ثم إن تكوين الإنسان النفسي جُعل بحيث يميل بطبعه إلى وحدة الولاء ، وإنه لما ينافي التكوين الإنساني تمام المنافاة أن يلقى على عاتق امرئٍ ما مسئولية عددٍ من الولاءات المختلفة في آنٍ واحدٍ ، ويستطيع بالتالي أن يقوم حتى بحق أي واحدٍ منها على النحو المطلوب .

إذن ، فكل الدلائل والقرائن تشير إلى أنه ليس ثمة إله سوى إله واحدٍ هو وحده خالق الإنسان ومعبوده بحقٍ ، وهذه الحقيقة يتم إعلانها في العالم الراهن على لسان بشرٍ مثلنا، أما في يوم القيامة فسيعلنها خالق الكون نفسه على رؤوس الخلائق ، وعندها لن يستطيع أحد أن يقابل هذا الأمر بغير الإذعان والاعتراف والتسليم !!

﴿ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ : مأوى ومقام لهم .

كل نظرية لا تطابق الحقيقة فهي كذب وافتراء على الله . وقد كان الناس ولا يزالون

يعيشون في كل عصرٍ على أساسٍ من هذا الكذب والافتراء ، وإن داعي الله إنما ينهض لكي يقيم الدليل القاطع والحجة الدامغة على كونه كذباً وافتراءً والذين يظلون مع ذلك متشبثين بمفترياتهم ، فإنهم أناس معاندون ؛ سيُلقى بهم في نار جهنم . أما الذين رجعوا عما كانوا عليه من الكذب والافتراء واتبعوا الحق ، فأولئك هم المتقون الخائفون من الله ، وسيمحو الله سيئاتهم من صحائف أعمالهم ، ويتلقاهم بالحفاوة والتقدير بناء على صالح أعمالهم !

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

كان رسول الله - ﷺ - داعي التوحيد ، ولكن أسلوب دعوته لم يكن هو الاكتفاء بهذا الإعلان الإيجابي القائل : "الله واحد" ، بل كان يكشف - إلى جانب ذلك - عن بطلان تلك الذوات غير الإلهية التي كان الناس قد اتخذوها آلهةً تُعبد من تلقاء أنفسهم وهذا الجزء الثاني من دعوته - عليه الصلاة والسلام - هو الذي صار عند الناس أمراً لا يُستساغ ولا يُحتمل .

وهذه الذوات غير الإلهية كانت في الأصل أكابرهم القوميين ، وقد مضت قرون ، وهم لم ينفكوا يستمعون إلى قصص كراماتهم المبالغ فيها ، حتى استولت عظمتهم على نفوسهم لدرجة أن رسول الله - ﷺ - لما ردّ على قدسيتهم تعذر على أفهامهم كيف يمكن أن يكون أولئك غير متصفين بالقدسية ؟ ومن ثم هددوه قائلين : لتكفن عن شتم آلهتنا ، أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون!!

على أن داعي الحق مأمور بألا يكترث لمثل هذه المزاعم والأقاويل السخيفة ، وإنما عليه أن يواصل عمله معتمداً على الله وحده ؛ إذْ بدون ذلك لا يمكن أن يتجلى أمر الحق .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾

أَفَرَأَيْتُم : أخبروني .

حَسْبِيَ الله : كافي في جميع أموري .

مَكَانَتِكُمْ : حالتكم المتمكنين منها .

يُخْزِيهِ : يذله ويهينه .

وَيَحِلُّ عَلَيْهِ : يجب عليه .

مازال الإنسان يعبد غير الله على اختلاف الزمان والمكان ، ولكن أحداً من الناس لا يجترئ - مع ذلك - على القول بأن آلهته المفضلة هي التي قامت بخلق السموات والأرض ، أو أنها تمتلك أزمة الأسباب الحقيقية لإيجاد أحوال الراحة والألم والسعادة والشقاء ،وعجيب اقتناع الناس هذا الذي يجعلهم لا يرضون بالتخلي عن معبوداتهم الباطلة .

وإن الداعي لا يسعه ، إذا لم تعد أدلته وبراهينه تؤثر في المدعو وتحرك منه ساكناً ، لا يسعه حينئذ إلا أن يقول: افعلوا ما شئتم فإذا جاء يوم القضاء الأخير ، فسيعلم الجميع مَنْ كان على حقٍ ممن كان على غير الحق . وهذا إظهار لليقين بعد إقامة الدليل

والبرهان، وتلك هي الكلمة الأخيرة تنطلق من لسان الداعي دوماً ؛ إذْ يكون قد استنفد كل طاقاته ، وعاد لا يملك إلا نفسه !!

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

يَتَوَفَّى الأَنفُسَ : يقبضها عن الأبدان .

يطرأ على المرء في أثناء النوم حالة الذهول واللا وعي ، فالنوم بهذا الاعتبار أشبه ما يكون بالموت ، وعندما يستيقظ المرء من نومه يعود إلى حالة الوعي والشعور مرةً أخرى ، وكأنما هذا يمثل البعث بعد الموت .

وفي ضوء هذه الظاهرة الطبيعية يتم تبصير كل امرئٍ ، على مستوى بدائي محدودٍ ، كيف أنه سيموت يوماً ، وكيف سيُعاد حياً من جديدٍ . ولو تأمل المرء بجديةٍ لوجد في هذه الواقعة الدنيوية درساً لآخرته !!

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ

سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾

لله الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً : لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه .

اشْمَأَزَّتْ : نفرت وانقبضت عن التوحيد .

فَاطِرَ : يا مبدع ومخترع .

يَحْتَسِبُونَ : يظنونه ويوقعونه .

وَحَاقَ بِهِم : نزل أو أحاط بهم .

الذين كان مشركو الجزيرة العربية يعتقدون أنهم سيكونون لهم عند الله شفعاء ، لم يكونوا في الحقيقة أصناماً من الحجر ، وإنما كانوا أسلافهم الكبار الذين اتخذوا لهم أصناماً وتماثيل من الحجر بمثابة رموزٍ أو علاماتٍ، إن شفعاءهم كانوا أصلاً أكابرهم القوميين ، أحاطوهم بهالةٍ من القدسية جعلتهم يظنون أن التمسك بأهدابهم سيكون كافياً لهم عند الله عز وجل !!

والذين يعتقدون في غير الله اعتقاداً كهذا ، يصل بهم الأمر شيئاً فشيئاً إلى حدٍ ترتبط معه كل عواطفهم السامية من الحب والخضوع والاحترام والإجلال بتلك الشخصيات غير الإلهية ، وبالتالي فإنهم يفرحون أشد الفرح إذا ذُكرت محاسن تلك الشخصيات ، ولكن أرواحهم لا تجد لذةً ولا متعةً فيما إذا ذُكرت كبرياء الله الواحد الأحد !

وأمثال هؤلاء لن يؤمنوا بالتوحيد الخاص ، مهما أقيم عليه من الدلائل القوية والبراهين الساطعة ، ولن تنفتح عيونهم إلا إذا انكشفت القيامة عن جلال الله وجبروته ..، وحال المرء اليوم أنه لا يكاد يستعد حتى بكلمة اعترافٍ واحدةٍ ، أما يومئذٍ فإنه سيقدم كل ما عنده فداءً لنفسه من عقاب ذلك اليوم العصيب ، ولكن لن

يغني عن المرء هناك شيء سوى أعماله الصالحة!

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً : أعطيناه إياه تفضلا وإحسانا .

هِيَ فِتْنَةٌ :تلك النعمة امتحان وابتلاء .

بِمُعْجِزِينَ : بفائتين من العذاب .

وَيَقْدِرُ : يضيقه على من يشاء بحكمته .

عندما يحصل المرء على شيءٍ في هذه الدنيا يفرح باعتباره نتيجة مؤهلاته هو ، على حين أن أشياء الدنيا هي متاع اختبارٍ وليست جزاء مؤهلاتٍ ، وإدراك هذه الحقيقة هو العلم الأكبر .

إن سعة رزق الدنيا أو ضيقه كلاهما خارج عن حدود الاختيار الإنساني ، حيث يبدو أن هناك قوةً فوق الإنسان هي التي تقرر من يوسع عليه في الرزق ومَنْ لا يُرزق إلا بقدر يسيرٍ.

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

أَسْرَفُوا : تجاوزوا الحد في المعاصي .

لاَ تَقْنَطُوا : لا تيأسوا .

الذُّنُوبَ جَمِيعاً : إلا الشرك .

وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ : ارجعوا إليه بالتوبة والطاعة .

وَأَسْلِمُوا لَهُ : أخلصوا له عبادتكم.

إن ذوي القلوب المرهفة الحس حين يوفقون إلى معرفة الله - سبحانه وتعالى - يظل يؤرقهم ويقض عليهم مضاجعهم سؤال مؤداه : ما بال تلك الذنوب التي سبق وأن اقترفناها في ماضي حياتنا؟ فحسهم المرهف قد يجعلهم نهباً للقلق والاضطراب وعدم الاستقرار النفسي ، حتى إن هذا الإحساس يصل ببعضهم أحياناً إلى حد اليأس والقنوط!

ولأمثال هؤلاء أعلن الله في كتابه أنه يجب عليهم أن يتأكدوا من أن أمرهم مع إلهٍ هو الغفور الرحيم ، والذي لا ينظر إلى ماضي المرء وإنما ينظر إلى حاضره ، ولا ينظر إلى ظاهره بل إلى باطنه ، وأنه يعامل المرء معاملةً سمحةً ، وليس معاملةً شحيحةً نكدةً . وللسبب ذاته فإن المرء إذا ما رجع إليه تعالى وأناب ، أخذه في كنف رحمته من جديدٍ ، مهما عظمت وكثرت ذنوبه التي صدرت منه فيما سلف !

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾

بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾

بَغْتَةً : فجأة .

يَا حَسْرَتَى : يا ندامتي ويا حزني .

فَرَّطتُ : قصرت .

فِي جَنبِ اللهِ : في طاعته وأمره وحقه تعالى .

السَّاخِرِينَ : المستهزئين بدينه وكتابه وأهله .

كَرَّةً : رجعة إلى الدنيا .

مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ : مأوى ومقام لهم .

بِمَفَازَتِهِمْ: بفوزهم وظفرهم بالجنة .

إن كلام الله لا ينقسم إلى أحسن وغير الأحسن ، ولم يأت القرآن بدوره مشتملاً على آيات بعضها أحسن وبعضها غير الأحسن ، وليس هناك فرق بين القرآن وبين الكتب السماوية الأخرى من حيث إن بعضها أحسن جوهراً وحقيقةً وبعضها ليس كذلك .

والأصل أن المرء في عالم الامتحان الراهن قد مُنحت له حرية الاختيار والعمل، فبإمكانه هنا أن يأخذ أحد الأقوال مأخذاً مستقيماً أو مأخذا ملتوياً معكوساً ، وأن يوجه اهتمامه - إن شاء - نحو المراد الحقيقي من الكلام أو يفتعل فيه المطاعن ويحمّله من المعاني المغلوطة ما لا يحتمل ، وإن الاستهزاء بالكلام الإلهي هو من أمثلة هذا الباب ،

حيث يلوي المرء أعناق بعض الآيات ويستخرج منها مفهوماً عكسياً ، ثم يأخذ يسخر منها بناءً على فهمه المزعوم ذاك !

وإن المرء ليخفي حقيقته في هذه الدنيا ؛ إذْ هو ينكر الحق بدافع التكبر وحده ، ولكنه يتشدق بألفاظٍ كما لو أنه ينكره على أساسٍ مبدئيٍ ، وفي يوم القيامة سيعود وجه المرء ناطقاً بحالته الداخلية ، فسوف يشهد وجهه يومئذٍ بأن الجوانب " غير الأحسن" التي جعل منها مبرراً لإنكاره الحق ، إنما كانت ألفاظه الكاذبة الملفقة ، وإلا فقد كان الحق في ذاته صافياً نقياً من كل شائبةٍ ، واضحاً تمام الوضوح ، وعندها سيذوب المرء أسفاً وحسرةً على تفريطه في جنب الله، إلا أن أسفه حينئذٍ لن يغني عنه فتيلاً !

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

لَهُ مَقَالِيدُ : مفاتيح وخزائن .

لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ : ليبطلن عملك ويفسد .

إن وجود الكون دليل على وجود خالقه ، وهكذا فإن سير الكون على هذا النحو الدقيق المنظم، وبهذا الأسلوب الهادف الحكيم مما يثبت أن هناك مراقباً لا يزال يراقبه ويرصد حركته كل حينٍ وآنٍ ، ولو تأمل المرء بجدية لوجد في الكون آية خالقه وآية منظّمه ومدبر شئونه كذلك .

وفي مثل هذه الحالة فإن الذين يتوجهون إلى ذوات أخرى دون الله بالعبادة والتعظيم، إنما يعملون عملاً لا قيمة له في كوننا الحالي ، لأنه إذا كان الخالق والوكيل

واحداً ليس غير ، فإن عبادته وحدها ستنفع المرء ، أما عبادة أحدٍ سواه فهي بمثابة توجيه النداء إلى آلهةٍ لا وجود لها إطلاقاً !!.

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

وَمَا قَدَرُوا الله : ما عرفوه ، أو ماعظموه .

قَبْضَتُهُ : ملكه وفي مقدوره وتصرفه .

مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ : بقدرته كطي السجل للكتب .

الصُّورِ : القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل .

فَصَعِقَ : مات ، وهي النفخة الأولى .

وَوُضِعَ الكِتَابُ : أعطيت صحف الأعمال لأربابها .

إن إساءة تقدير الله أو بخْس قدْره هو المصدر الرئيسي لمعظم الضلالات والانحرافات ؛ فالمرء إنما تستبد بعقله مظاهر العظمة الأخرى لكونه لا يدري عظمة الله اللانهائية ، وهو إذْ يظن الارتباط بأكابره وسيلةً للنجاة ، فإنما يبعثه على هذا الظن جهله بأن الله أكبر بكثير من أن يجترئ أحد عنده على تحريك لسانه بدون إذنٍ منه ، والقيامة حين تزيل عن أبصار الناس الغشاوة ، فسيدركون أن الله سبحانه كان عظيماً

وجليل الشأن ، وأن الأرض في قبضته كعملةٍ صغيرةٍ ، والسماء مطوية بيمينه كالورق العادي!

وكما يدق الجرس في قاعة الامتحان إيذاناً بانتهاء فترة الامتحان المحددة ، فكذلك سوف يُنفخ في الصور عند انقضاء أجل عالمنا الراهن ، وبعدئذٍ سيتغير النظام الكوني بأكمله، ويظهر إلى الوجود عالم جديد ، وإن عالمنا الراهن يستنير بضوء الشمس الذي لا يمكّننا إلا من رؤية الأشياء المادية وحدها . أما عالم الآخرة فإن سيستضيء بنور الله تعالى مباشرةً ، ومن ثم فسيمكن هناك أن نرى الحقائق المعنوية المجردة هي الأخرى رأي العين .. وسيُحضر الجميع يومئذٍ أمام محكمة الله . ولقد كان الأنبياء والدعاة السائرون على هداهم قوبلوا من جهة غالبية البشر في هذه الدنيا بالاحتقار وعدم الاكتراث ، ولكن الناس في الآخرة سوف لا يلبثون أن يتملكهم دهشة ووجوم إذْ يرون أن مصائر العباد إنما يتم تقريرها هناك على أساس مَنْ وقف إلى جانبهم مؤمناً بما جاءوا به ، ومَنْ تلقاهم بالإنكار والتكذيب!

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢ ﴾

زُمَراً : جماعات متفرقة متتابعة .

حَقَّتْ : وجبت وثبتت .

للإعراض عن الحق وإنكاره درجات ، وبحسبها تتفاوت درجات أصحاب جهنم كذلك ، وسوف يقسم هؤلاء في الآخرة إلى جماعاتٍ شتى على حسب درجاتهم ، ثم

يُقذف بكل جماعةٍ إلى الدرك الذي تستحقه من دركات الجحيم ، وكم سيكون المشهد فظيعاً ومخزياً يوم يُوجه إلى جهنم أصحابها ، ويمكننا أن نتخيل ذلك بوضوحٍ من خلال الحوار الذي يجري ساعتئذٍ بينهم وبين الملائكة الموكلين بحراسة جهنم .

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

طِبْتُمْ : طهرتم من دنس المعاصي .

صَدَقَنَا وَعْدَهُ : أنجزنا ما وعدنا من النعيم .

نَتَبَوَّأُ : ننزل .

حَافِّينَ : محدقين محيطين .

وأهل الجنة هم الذين تتوافر فيهم صفة التقوى ، وإذ يدرك المرء كبرياء الله على نحوٍ يقضي على شعوره بكبرياء ذاته ، يترتب على ذلك - بطبيعة الحال - أن يمتلئ فؤاده بالخشية الإلهية ، وإحساسه بمدى عجزه - من ناحيةٍ - وبعظيم قدرة الله - من ناحيةٍ أخرى - يجعله شديد الحذر والاحتياط في أمر الله ، وهو لا يزال كل الوقت في حالة قلق وتخوفٍ دائم مما عسى أن يعامله به ربه في الآخرة ، والذين خافوا من الله في الحياة الدنيا هذا الخوف ، هم الذين سيعتبرون من ورثة الحياة الخالية من كل المخاوف والهموم في الآخرة !

وسيُعامل أهل الجنة في الآخرة معاملة الضيوف الوافدة على الملوك ، حيث سيذهب بهم إلى دور إقامتهم بغاية التوقير والإكرام ، وسوف لا يلبثون أن تفيض على ألسنتهم كلمات الشكر والحمد والثناء تلقائياً إذا رأوا الجنة بعيونهم ، ولن تُعدّ لهم في الجنة مساكن عالية مريحة فحسب ، بل ولن يكون هناك حظر ما على التجول والاجتماع وتبادل الزيارات فيما بينهم ، كما ستوفر لهم كل وسائل السفر والمواصلات من أرفع طرازٍ وبكميةٍ هائلة لا تُقدر.

إن المستحق للحمد والثناء هو ذات الله الواحد الأحد ليس غير ، ولكن هذه الحقيقة لا تتجلى في عالم الامتحان الراهن ، وستكون الآخرة يوم ظهور الحمد الإلهي في أكمل صوره ، فيومئذٍ ستصدح جميع الألسنة ، متجاوبةً معها سائر الموجودات بنغمات الحمد الإلهي ، وستنهار كل الأمجاد الزائفة ومظاهر العظمة الكاذبة ، ولن تكون هناك سوى ذاتٍ واحدةٍ يتوجه إليها المرء بالدعاء والتمجيد ، وسوى كبرياء ذي الجلال الواحد يسبح بحمده ويثني عليه غارقاً في خضم كبريائه وجبروته اللامتناهي!!